النقد

أصدقائي الشعراء!
هذا لا يؤدي
بقلم معاوية محمد نور

ظهرت في الشهور الأخيرة عدة دواوين شعرية، فأثارت كثيراً من اللغط في الصحف، وكثرت عنها الكتابة الرديئة والحسنة، وشاع الحديث بمناسبتها عن الشعر والأدب.

ولقد كان في نيتي ألا أتعرض لهذه الدواوين بخير أو شر، لأن نفوس الأدباء بمصر تضيق ذرعاً بالملاحظة والنقد، ولا تتسع الصدور لكلمة الحق، ويقل التسامح، وتغلق أبواب النظر وسعة الفكر ورحابة العطف الفكري. ولأن معظم من يكتب أو ينظم الشعر يعتقد أن الأدب نوع من الملكية الفردية يسوء صاحبها ألا تقول كلة الأطراء عن بضاعته.

غير أن الحديث قد تشعب في الآونة الأخيرة في الصحف والمجلات الأدبية عن هذه الدواوين. ويسوء الناقد المخلص أن يرى أن معظم ما كتب في هذا الموضوع لا يوجه القارىء الراغب في الفهم، ولا يصلح الأذواق الأدبية ويوجهها وجه الصدق وطريق الصلاح الأدبي.

وسبب آخر كان ينأى بنا عن الكتابة في هذا الموضوع، وهو أن صاحب «وراء الغمام» صديق عزيز علينا، أهدى الينا ديوانه ليلة ظهوره، وكذلك فعل صاحب «الملاح التائه». وهما ولا شك ينتظران المديح والثناء من صديق يجلس معهما ويأنس الى صحبتهما. غير أن الموضوع في رأينا قد تعدى أخيراً هذين الأديبين الى ما هو أخطر وأبعد شأناً؛ تعداه الى الحديث عن طبيعة الشعر والكتابة، وأن الأقلام قد خطرت في هذا الطريق بكلام نعد معظمه خطرا على الحركة الأدبية في مصر، وفهم الفنون الأدبية على الوجه الذي يفهم منها في الجيل الحاضر.

ولهذا رغبنا في كتابة هذه الكلمة لا لنمدح أو نذم، ولكن لندلي برأي في الشعر كما نقرؤه ونفهمه، وكما ننتظر من الكتاب والقراء أن يقرأوه ويفهموه.

وأول ما يلاحظ على هاتين المجموعتين أن ديوان «وراء الغمام» يكاد ينحصر في الحب ومطالبه، وأن موضوعات «الملاح التائه» تكاد تنحصر في النظم عن مظاهر الطبيعة الكبرى كالبحر والليل، وأن أكثر أخيلته وألفاظه هي عن النسائم والأمواج والشواطىء العامرة أو المهجورة، وما اليها من «الشعريات» التي تواضع العرف الدارج على أنها «الطبيعة». فأولهما إذن يمكن تسميته «بشاعر الحب» والثاني «بشاعر الطبيعة». فكيف يفهم صاحبنا الأول الحب، وكيف يرى الثاني الطبيعة، والى أي شيء منها يلتفت ذهنه؟

والمفروض بالبداهة أن مثل هذا الشعر يكتب ليقرأه الرجل المصري أو العربي المثقف، الملم بشيء من حضارة هذا العصر وثقافته، الشاعر «بوعي» هذا الزمن الذي يعيش فيه، والذي تشغله مناظر وآراء ومسائل تثير شكوكه أو تبعثه على التفكير والتأمل والانتاج الفني.

فلنتكلم عن الحب كموضوع شعري يتناوله أي شاعر عصري، يود أن يقرأه أي مخلوق حي شاعر في القرن العشرين، فليس ثمت شك في أن الحب كحاجة «فسيولوجية» هو كحاجة أي مخلوق حي الى الأكل والنوم. وهو مظهر عادي تشترك جميع الأحياء فيه (ويمكن أن يقال إن النبات والجماد يعرفان الحب أيضا والسلب والايجاب من قوانين الكون بأجمعه) فلم يختص اذن بنظم الشعر والنشيد والأغاني؟

فاذا حدثني صديق أو عشير بأنه يحب امرأة بذاتها، وانه لا يطيق الابتعاد عنها، وأنها تثير لواعج أشجانه وأمراض نفسه، فقد يسمع مثل هذا الحديث ويحمل حينما أجلس الى أي صديق هادىء فيحدثني عن متاعبه، وعما يستمرئ من الأكل وما يستهجن، وعما يحب أو يكره من ألوان الثياب، ولكني لا أطيق كقارىء

حتى أن أستمع إلى شعر لا يتعدى نغمه مثل ذكر هـذه الأشياء الأولية ، وإلا لكان كل فرد منا شاعراً ، لأن لكل فرد حاجاته وأذواقه وشؤونه التي تتعلق بالحب والأكل والنوم والمجيء والذهاب . فانما هذه « أبجدية » كل انسان .

أصدقائي ! . . إن هذا « الشيء » الذي نسميه شعراً والذي نود أن نقرأه نحن الأحياء العارفين لعالم الحبر والورق ، هو خلاف « الكلام الحسن » عن الأشياء العادية . إنه يتطلب وجود شاعر يأكل كبقية الناس ولا شك ، ويحب مثلهم ، ولكن نظره وأحاسيسه والتفاتات ذهنه وقفزات وعيه نحو هذه الأشياء العادية « غير عادي » ؛ وهو شيء آخر خلاف مايحس عامة الناس ويقفون عنده . ومن هنا كانت قيمة الشاعر الحق . أي أنه (ولو أنني لا أود استعمال الكلمة ولكنها كبيرة الدلالة) فيلسوف . فالحب يصبح موضوعاً جديراً بالشعر كما تصبح أية حاجة إنسانية أخرى حينما يكشف لنا الشاعر معنى ونغماً وراء مظاهره المعروفة ومصاحباته العادية . وربما لايقع من نفس القارىء هـذا النغم وذلك المعنى ، وقد يبدو سخيفا أو غير صادق ، فالأمزجة تختلف ، والثقافات تتباين وتفترق ، ولكنه لايخطىء في أن يبدو أي قارىء حس بأن هناشيئا جديراً بالالتفات والعناية .

أما الشاعر الذي يبدي ويعيد في الحديث عن ملذاته وآلامه وحسراته التي يثيرها شخص المحبوب أو ذكراه فحسب ، (مهما اختلفت القافية وتعدد الايقاع) لايعدو أن يكون انساناً لم تتسع أنانيته إلى أكثر من حاجاته البسيطة المتعارفة ، وهو يشبه العليل الذي اكتشف لذة الخبز لأول مرة ، أو الرجل الصحيح الذي حيل بينه وبين النوم ، فيفرح الأول حينما يتناول وجبة فاخرة ، ويتألم الثاني لذلك النوم الهنيء الذي طلقه الآن ، وهذه ولا شك أشياء إنسانية عادية لا غبار عليها ولا نقد فيها ، ولكن ليس فيها ما يبرر وضعها فناً يسترعي اهتمام القارئ الصحيح ، وربما يصلح مثل هذا الشعر ويجمل عند أناس هم دون طبقة هذا « الكوكب الجديد » الذي اكتشف « قارة الأكل » أو « قارة المرأة » ثم وقف يسبح بحمدها .

والدكتور ناجي بعد كل هذا قد قرأ بعض قصائد «لورنس» « وت . س . ايليوث » وأضرابهما من الشعراء المحدثين والقدماء عن الحب ، أولئك الشعراء الذين نراهم جاهدين يفتشون عن الله ، ويبحثون في الجنس ونشوة العفاف الروحي ، ثم يعود كل منهم « وحقيبة وعيـــه » ملأى بالأحاسيس المختلفة ، والأفكار المريرة أو العذبة ، ملأى بالثمالين التي تبرق كاللؤلؤ ، وبالسلام الذي تعقبه أشد فترات الحرب تمزيقاً للأجسام والأرواح ، وبالذهول الذي يسمو إلى طبقات السماء ، وبالسخر الذي « يرى القمر في أمسية حب أشبه بالون يلعب به صغار الأطفال » ، ثم يذكر أن المساء ينام كرجل عليل ينتظر مبضع الجراح ، وبالاختصار « بمعنى » أو « لامعنى » عظيم أو « بتيار وعي » ربما يرى في أنامل الحبيب أقطاراً متسعة ولو أنها بادية التناقض ، أو بأحاسيس متناقضة بعيدة ، حالكة الظلمة ، أو شديدة الوهج .

ونحن لانريد من هذا الحديث أن يقلد أي أديب أحاسيس غريبة عن نفسه بعيـدة عن مطارح فكره ، ولكن كقراء مخلصين نطلب منه إذا لم يكن لديه ما يؤلم ويحير ، ويسعد ويشقي الشاعر والمفكر والقارئ المعاصر ، أن يريحنا ولايكلف نفسه هذا الجهد . ففي الحيـاة من التفاهات اليومية ، وفي أطراد هذه الحاجات التي نشعر بها في صباحنا ومسائنا ما يجعلها عسيرة الاحتمال ، ويضاعف مشقة العيش ، فليس بنا ثمت حاجة الى أن نقرأها في عالم الحبر والورق .

والشاعر العصري — سواء في مصر أو في الصين — الذي لاتثيره تيارات الفكر المعاصر ، واكتشافاته ومتاعبه ، والذي ليس له وجدان يتغير ويتفاعل Catapisis بما يسمع ويقرأ ويفكر ويشاهد من عيوب في نظام حياتنا الحاضرة ، أو نشوز في أنغام فكرنا المعاصر ، أو ألوان تسترعي الاهتمام في نسيج الثوب الذي يلفنا ، أو فراغ في إنسان بادي الامتلاء ، أو أغنية في زاوية من زوايا بيتنا المنوى ، ليس له ، بل لنا الحق في ألا نعده في عداد الشعراء المخلصين .

والظاهر أن شعراءنا يعيشون في أجسام محدودة الفكر والاحساس بحدود جسدها وغرفتها التي تسكن ، وأن الأشياء التي تبعث الرجل المعاصر على أن يفكر ويضطرب أو يغني لاتدنو منه أو هو لم يعرفها قط . إن نظرة واحدة حيث يتقاطع شارع عماد الدين بشارع فؤاد الأول مثلاً في أي مساء لحرية بأن تبعث في الفنان أحاسيس وأفكاراً تصلح لأن تكون قصيدة جيدة إذا كان له من الشعر نصيب .

والذي يبدو لي من قراءة هؤلاء الشعراء والحديث معهم أيضاً